الإغراق في الثورات

مقابلات في فلسفة التاريخ والاجتماع

لسليم خياطة

عندما نقول « الثورات » يجب ان لا نقصد الفترة القصيرة التي احتدمت فيها معاركها الفاصلة، بل حقبة النضال الطويلة التي تقدمت تلك المعارك أو الحقبة الطويلة التي عقبتها وقبض فيها الثائرون على الحكم وحققوا افكارهم. كذلك يجب ان لا نحصر انفسنا في تلك الفكرة المبتذلة التي تسيء فهم الثورة ولا ترى فيها الا انهاراً من الدماء المسفوكة وصوراً مروّعة من الهيجان والفوضى وطوفان الكراهيات المدمرة ، بدلاً من ان تتجلى لها فيها الانقلابات الاجتماعية العميقة ، ومشاهد الصرح التاريخي الذي يتدرج عليه الانسان نحو تحقيق خيره وخير ابنائه ، او التعبير عن مطالب جماهير بشرية معذبة قد تتحقق لها تلك المطالب في ثوراتها وقد لا تتحقق ، وقد تتقدم بها نهائياً او تتوقف او تتأخر لوقت فحسب. غير اننا ايضاً يجب ان لا تفوتنا ملاحظة خاصةٍ رافقت معظم الثورات ، وهي خاصة الاغراق. فان كل الثورات أغرقت في بعض ما قامت ضده. تعدّت حدود النقمة على ما في عدوها من شرور الى الوقوع في شرور تقابلها ، والاصابة بالعمى او التعامي عن ما قد يكون في تلك العدوة من خير ، مبتعدة في الجملة عن هذه الفلسفة اليونانية الرصينة ، العاقلة التي كانت تعبر عنها لفظة « الاعتدال » . اقول كلها — مستثنياً فقط ثورة العمال والفلاحين في بلاد الروس . والآن خذ على هذا الكلام بعض الأمثلة :

تطرفت الحركة المسيحية في كره وثنيات العالم الروماني ورذائلها الترفيّة (من ترَف) حتى مال بها تطرفها الى الناحية المقابلة . ولنتق كشاهد على هذا الاتجاه مظهراً واحداً مما انطبعت به تلك الحركة ، هو المظهر المختص بالعلاقة بين الرجل والمرأة . فقد كان حبل الطلاق والانفصال بينهما رخواً جداً عند الرومان ، وجاءت المسيحية فانقلبت على هذه الرخاوة انقلاباً « طبويّاً »[1] مفرقاً حتى جعلت الطلاق مستحيلاً او شبه مستحيل . كانت العلاقة بين الرجل والمرأة على انحلال عرفي وقانوني في « الأخلاقية » الوثنية[2] ، فصارت على جمود وانحباس ديني مضنٍ في الأخلاق المسيحية.

---

(١) من « طبو » المقابلة لـ Taboo ، وتعني « المقدس » او « المحرم » من الاشياء عند الهمج ، وآثارها عند المتمدنين (٢) يستثنى من هذا علاقة الامة بسيدها والعبد بسيدته ، اذ انهما كانا مرتبطين بمولاهما ارتباط عبودية مطلقة ، حتى اذا كانا يستعملان للاستيلاد او الالتذاذ الجنسي ولم يكن بوسعهما ان يمتنعا عملياً عن تلك بطريق الانفصال لعدم الاعتراف بقدرتهما عليه

كان الشكل الوثني لهذه العلاقة رذيلة وشراً ، بمعنى أنها مضرة ، فصارت الى ما يماثل هذا في شكلها الجديد في العهد المسيحي

ان الدفة التي ساقت سفينة العلاقة الزوجية في الحالين معاً كانت دفة نظام الفردية والملكية الخاصة المطلقة في صورتها القديمة . وإذ قامت كل الثورات الناجحة في الماضي بدوافع مطامع الملكية الفردية [1] واخلاقها وغاياتها ، فقد ارتكبت كلها تطرفاً أهوج ينتج عن اعتبار حرية التنافس والتحارب من اجل استعلاء الفرد على الفرد واستغلاله ، ومن ثم طبقة الافراد المستعلين على طبقة المستضعفين واستغلالهم استغلالاً قانونيًا ومقبولاً وطبيعيًا . ذلك لان اعتبار هذا الاستبداد حلالاً لشيء دائماً يقترن في النفس بنزعات التطرف والاغراق في امداد الانانية بمطامعها ، في تحقيق هذه المطامع بكل وسيلة . وهذه الانانية الفردية ، الاباحية المطامع ، كانت تجعل الرجل مالكاً المرأة عند الوثنيين يرميها عندما يحلو له ، الاّ اذا كانت غنية وذات اسرة قوية تشد ازرها فترميه وقتئذاك ساعة يحلو لها هي . ثم ان تقمص هذه الفردية الاباحية في الملكية المطلقة للقوي او الغني عادت عند المسيحيين فقيدت المرأة بالرجل تقييداً لا انفصام له

خذ مثلاً آخر :

كان تراخي العلاقة بين المرأة والرجل قبل الثورة الفرنسية من مميزات النبلاء الاقطاعيين ، الحائمين حول البلاط كالفراشات الزاهية ، حتى ان شاعرهم «لافونتين» كان يتهكم في اشعاره «اقاصيص واخبار [2]» على «البون بورجوى» (أي البورجوازي الطيب) لتماسك اخلاقه الجنسية . كان هؤلاء النبلاء على هذه الحالة رغم القيود المسيحية التي صارت في بيئتهم الى وجود شكلي . ولكن بعد ان نشبت الثورة الفرنسية الكبرى ، وكانت نتيجتها ان فازت البورجوازية واستقرت (وهي طبقة من الاقلية استخدمت جماهير الشعب وطبعته بنزعتها الخلقية ، متوسلة به دائماً الى جعل نفسها اقطاعية جديدة مؤسسة على رؤوس الاموال بدل الارض ، افلتت من قيود الزوجية المسيحية التي كانت ترتبطها نوعاً ما قبل الثورة ، وراحت تتخلق برخاوة النبالة الاقطاعية ، ممعنة مغرقة في هذا التخلق ، متخلصة بعنف وسرعة وهوس من قيودها السابقة ، مرخية الحبل لاهوائها وغرائزها ارخاء كاد يكون جنونيًا احياناً . كانت كأنما تنتقم بذلك مما كانت تجد في الاقطاعية ، وفي اخلاقها المسيحية الخاصة سابقاً ، من ضغط وكبح جماح فرديتها و «حق» تملكها وتحقيق مطامعها . وهكذا نجد عداوة القائمين بالثورة لسالفيهم قد حدت بهم الى الاغراق في التشبه بهم كما حدت بالمسيحية الاولى الى الاغراق في الابتعاد عن سلفهم وهكذا ايضاً نجد نزعة الاغراق هذه من مميزات الثورات القديمة الناجحة التي كانت تدعو اليها

(١) يقول ماركس وانجلز في بيانهما (عام ١٨٤٨) : « كل الحركات التاريخية السابقة كانت حركات الاقليات او لمصلحة الاقليات » . (ص ٢٠ — طبعة « مارتن لورانس » — لندن)

(٢) نخبر لنا في الرواية ؟ وقد ترجمت اسم اشعار "Contes et nouvelles" كما ذكرت

مصالح الطبقات الغالبة المسيطرة ، وان هذه الثورات تتشابه ضمن نطاق نظام متشابه في صوره المتنقلة ، لما يقوم عليه من اسس ومبادىء اباحة التنافس الفردي والتملك الخاص ، من ارخاء العنان بالتالي للمطامع والشهوات في ميدان حر يدينه القوي او الغني

غير اننا اذ ندرس ثورة العمال والفلاحين ، التي تختلف بصراحة عن جميع الثورات القديمة الناجحة اختلافاً جوهرياً من حيث انها لم تقم بدافع من دوافع طلب السلطة على اساس التنافس الفردي ، او دوافع نقمة مظلومين حائرين متمردين فحسب (كحالة الثورة السبارتا كوسية ضد اسياد روما او حرب الفلاحين في مفتتح عهد الاصلاح اللوثري في المانيا) ، بل اشتملت من اجل محو كل سلطة استبداد وتملك واحتكار فردي او طبقي — نعم ، اذ ندرس هذه الثورة بدقة وحياد على تجليات ذلك الميل الى الاغراق في الهوى الاباحي الفردي لم يكن ليظهر الا بصور عرضية ، وقتية زائلة ، لم تكن الا من بقايا النزعة الخلقية في العهد القديم . وما ذلك الا لانها كانت ثورة ترمي الى عقل المطامع الفردية — الا لان هذه المطامع وثوراتها وحركاتها ونظمها هي التي تنساق معها انسياقاً دائماً غير وقتي وغير عارض ، كل المظاهر الهوج والانحرافات المتطرفة والفيضانات الطغيانية المشوهة سواء كانت عقلية او مصلحية او عصبية او فنية او اخلاقية او حتى — جنسية ! هذا الذي «كان» يدّعي البورجوازيون انهم يضعونه على الحياد قبل ان تجيء الفاشستية وتعلن الحقيقة !

***

لقد كان من جملة خواص ثورة العمال والفلاحين في بلاد قياصرة الروس انها لم تعمد الى الهجوم الحربي الايجابي والتعلق بالفتك الدموي . بل بادوتها بهما البورجوازية والاقطاعية الروسية والعالمية المتحدتان . انها لم تتطرف ، كحال الثورات السابقة ، في نبذ كل ما كان في النظام المنبق ، بل عملت على الاحتفاظ بخيره ونبذ شره ، متحذرة من الوقوع في الرذيلة الاجتماعية المضرة بدافع الكراهية او البغض الاعمى . انها لم تنتقم من اعدائها باصطناع نزعتها الخلقية ، كما فعل بورجوازيو الثورة الفرنسية او الابتعاد عنهم الى الطرف الآخر النائي . بل تمسكت بوسط معقول

ولما كنا اخذنا العلاقة بين الرجل والمرأة مثلاً نتكلم عنه في الثورتين المسيحية والفرنسية ، فلنتكلم عنها الآن بصدد هذه الثورة الثالثة . فان العلاقة بينهما لم تتخذ في هذه ، بعد تسلّم العمال والفلاحين السلطة ، لا صفة الانحلال الاقطاعي البورجوازي ولا صفة الارتباط « الطبوي » المسيحي الشديد . فلما قام بعض الشبان المتحمسين ، الذين كانوا لا يزالون متأثرين بشيء من النزعة العقلية في النظام الراحل ، بمظاهرات يدعون فيها الى خلع كل حائل يقوم في سبيل الاجتماع المطلق بين الجنسين ، وراحوا يزينون صدورهم باشرطة كتبوا عليها عبارات مثل : « ليسقط الحياء » ، هبّ لينين ورفاقه الى عقل هذه الموجة الهستيرية والى تنبيه اولئك الشبان الى خطأهم العظيم ، وتبيان الشرور الكامنة في الاغراق في الاهتمام بالاجتماع الجنسي

وان هذا ككل شيء آخر يجب ان ينبع نظاماً مفيداً ، نظيفاً ، جميلاً ، يجمع بين مطالب الثقافة وحاجات الحياة . وحاضر لنين وتنتشر محاضرات قوية بديعة في الموضوع ، وحدثت شيخة الثورة ، الرفيقة الالمانية « كلارا زتكين » حديثاً طويلاً جاء فيه ما معناه : « اي انسان عاقل لا يأنف من الشرب من كأس شرب منها اناس قبله »

ثم لما ظهرت في تلك الثورة ، من الناحية الاخرى ، دعوة الى نوع من الزهد « الرهبانية » المنحرف تقول بعدم وجوب وجود « الكومفور » [1] في حياة النظام الجديد ، أجاب ستالين على اولئك بالنيابة عن الحزب الشيوعي الدعاة في المؤتمر السابع عشر للحزب المذكور ، بتسخيف نظرتهم هذه ، وبإفهامهم ان العمال والفلاحين وعلماءهم ينتجون بالاشتراك اكبر قدر ممكن من المستهلكات ووسائل الراحة ليوجدوا للانسانية سعادة التمتع بما تنتج . وهكذا نرى التعقل الرصين الذي اخذت به ثورة العمال والفلاحين ، التي لا تميل مع مطامع فرد او طبقة من الافراد القليلين ، او تنطبع بطابع نظامهم الذي تسود فيه العقلية التي تقبل إشباع الشهوات والمطالب الاستبدادية المرخي لها العنان كثيره ، ليس فيه إدٌّ عظيم أو كثير ما يقال . بل تميل الى إراحة المجموع الاكبر ، ومن بعده المجموع كله ، وتنظيم علاقاته بعضه ببعض تنظيماً معتدلاً ، فضيلاً ، صحياً ، ونظيفاً

***

ومما يحضرني الآن من المقابلات مقابلة خطرت لي بين موقف كلٍّ من ثورة تركيا الوطنية والثورة الشيوعية الاجتماعية من اللغة . فان تركيا ، التي ما زال طابع البورجوازية على ثورتها الناهضة قوي الدمغة ، قد إنحرفت في مجال اصلاح لغتها الى ناحية في تفقيرها . الثورة التركية الوطنية على حقٍّ من الناحية القومية الوطنية في محاولتها قطع كل دابر للتأثير السيء الذي كان له ان يفيض من بقايا الحياة العثمانية ، ومن استطراد العلاقات السابقة مع سائر اجزاء الدولة العثمانية . غير انها ، كما يبدو لي ، أغرقت في ذلك حيث مالت الى التخلص من الكلمات الفارسية والعربية التركية . فللخير للغة ان يكون الاهتمام في ابداع كلمات جديدة وفي استعارتها من لغات حية ، أكبر مما يكون في إضاعة الوقت في العمل على قتل الكلمات التي تعرت من قصها اذا لم تعد مفيدة أو ملائمة للحياة التركية الجديدة ، وتبقى حية اذا كانت تفيد او تلائم . ان الثورة ابدعت واستعارت ، ولكن كان عليها ان تبدع وتستعير دون ان تتحمس في القتل . ذلك لانه كلما كان في اللغة الفاظ حية مستعملة (ولا يكون التعمد في احياء الميت منها مفيداً ، كما تفعل الجماعات اللغوية في الغالب) مهما كان مصدرها ، أثرت اللغة وآلانت من تقارها وأسلست من قيادها وساعدت العلم والادب والفن والثقافة على الارتقاء ،

(١) اي التمتع بأسباب الراحة والطمأنينة الجسدية ، التي تهيؤها الوسائل والمخترعات والاختراعات المتوافرة في الحضارة الصناعية والزراعية الغنية في العصر الحديث

وسهلت العمل على أصحابها . ليس كل ما في الماضي مما يحسن بنا او مما نستطيع قذفه في سلة المهملات ، وليس كذلك ، كل ما فيه مما يحسن او يستطاع عدم قذفه في هذه السلة المباركة !

***

اللغة وآدابها أثمن ما ننتزعه من الماضي لفائدة الحاضر ورفاهه . وكيفما كانت هذه اللغة ، فانها تبقى تراثاً مرهوباً يحسن بنا ان يُترك تحسينه وتجميله من جهة تنقية ما لا يصلح استعماله فيها للتطور الاجتماعي ، الذي يغني عن جهود الدكتاتورية في ذلك ، بل ان قيام النظام الجديد يحتم وقوع هذا التطوُّر .

وهذا خيرٌ من ان نعمد الى التقطيع والتشذيب تشذيباً او تقطيعاً اصطناعيًّا يفقر ذلك التراث اكثر مما يغنيه . ثم ان اللغة هي الشيء الذي يجب علينا ان نوسع فيه ما نستطيع ، مجال تنازع البقاء وبقاء الأنسب . لندخل الى اللغة كل ما يمكننا من الالفاظ ، حتى ما لا يلزم او ما لا يبدو لازماً ، ثم لنترك المجتمع ونظامه وحاجته تنتقي منها ما يلزمها . وكلما رقّينا المجتمع ورفعناهُ وحررناه ترقت اللغة وتقدّمت وتحررت من تلقاء ذاتها ، لانها أداة المجتمع في اتقائه وتابع يمشي معهُ

وما الضرر في ان يكون لكل معنىً مترادفات عدة ، واحدة من جذر عربي ، واخرى من اصل فرنسي ، وثالثة من سلالة طورانية ، مثلاً ؟ ان ذلك يعمق تربة اللغة ويسمّدها ، يسهل استعمالها على الشاعر والعالم والكاتب ، وعلى الشعب بأجمعه ايضاً . اما الالفاظ الجافة ، غير الصالحة ، فتموت من نفسها . وما اكثر ما في العالم اليوم من اكاديميات ومجامع لغوية قد تكون اقل تعاوناً من جاماتنا اللغوية ، ولكنها مع ذلك تحاول الوقوف احجار عثرة بحصر الالفاظ في مصدر واحد هو المصدر القديم «العرقي» او العنصري الصبغة (لاتيني ، عربي ، ايراني ، طوراني ، فرنسي ، الماني ، انكليزي..) دون تطور اللغات و « تمرّدها » من المصدر العامي الذي هو اغزر ينابيعها والخالق الاول لالفاظها ومن مصدر اللغات الاجنبية الذي تستفيد جميع اللغات فيه بعضها من بعض كأنما هناك تعاون بينها على التقريب بين البشر ، او تعاون بين البشر على التقريب بينها ؟ لكن هل جمود هذه المجامع واختصاصها في التحجير والاصطناع المتكلف يحول دون تطور تلك اللغات تطورها الطبيعي الاجتماعي ؟ كلاّ ! وهذا اقرب برهان على ما اقول تجده في اخفاق مجامع لغتنا العربية بوجه عام ، كأن همها نشر الجهل وصد الشعب عن سبيل التعلم ، كأنها موكلة بقطع اقنية الاغتذاء عن لغتنا المحبوبة وفصم علاقتها بالحياة . ان احداً لا يلتفت الى محاولات هذه المجامع التفاتاً جديًّا ، والالفاظ الثقيلة التي تخترعها لا يستعملها سوى نفر من اعضائها ولا يقرأها سواهم . اما في بقية العالم ، فمثل هذه المجامع موضوع للتنهكم عند المفكرين ، وموضوع « مريحي » عند الشعب اذ لا يكاد يدري بوجودها

والآن « وهذا هو اصل النغمة » نرى ان الثورة التركية الوطنية قد انحرفت ، وهي في سبيل القيام باصلاحاتها العظيمة ، عن جادة الصواب في شأن لغتها بمحاولة احياء الرميم واقصاء الحي . ولقد انحرفت في ذلك بإغراق ينتج ضرراً للغة التركية . ولكن ما الباعث على هذا ؟ الباعث هو ان الثورة التركية كانت ، حتى وقتنا ، بورجوازية ، قائمة على اساس فتح السبيل للتملك الشخصي واباحة الميدان لنمو الثروة الفردية ، لنمو التجار وأصحاب الصناعات الناشئة ومن اليهم . ذلك انه لما كانت البورجوازية التركية قد وجدت نفسها في حالة حرب مع بورجوازيات اجنبية ضخمة تحاول سلبها ذلك السبيل والميدان ، فقد عمدت الى استخدام كل وسيلة لتأمين مصالحها الخاصة . ومن هذه السبل ، هذا الاصلاحات الانشائية الواسعة ، المفيدة للبلاد عموماً ولها خصوصاً ، كان ذلك « الاصلاح » اللغوي الذي لم يكن في الحقيقة اصلاحاً بل « وسيلة » . وسيلة لاثارة روح الوطنية في الشعب ضد الاجنبي الخطر المضر ، المعادي لنهضة الاتراك . والروح الوطنية حقة وفضيلة كانت كحالتها في تركيا او الحبشة مثلاً ، او ظالمة ورذيلة كانت كحالتها في المانيا وايطاليا مثلاً ، هي التي تعتمد عليها كل بورجوازية كأساس ورقوة لتحقيق مطالبها او مطامعها

***

وقد يكون (وغالب الامر كذلك) أن مصلحة الطبقات العاملة في تركيا كانت في ان لا تعارض بورجوازيتها في غلوائها طالما انها لا تزال وطنية دفاعية مناهضة للاستعمار ، فتتقي هذه الطبقات بذلك غائلة البورجوازيات الاستعمارية التي ترمي الى التسلط على جميع الاتراك بالسواء . كذلك قد تكون في جانبها فائدة موقتة ، هي نتيجة لحالة سيادة النظام الاستعماري في معظم العالم (وهي سيادة تسير نحو الاندثار بسرعة لخروج الاستعمار عن مصلحة الجمعية عموماً وعدم استطاعته تأمين حق البقاء لها ، الامر الذي يعاكس ارادة الجمعية واعمق غرائزها ومقاصدها) ، فلا تأسف كثيراً لتطرف بورجوازيتها الفتية في قطع كل صلة بأقطار اخرى لا تزال مجنية الهام لاناس يحكمونها بالحراب وباسم الاديان والتجديد

لكن عندما تقوم الطبقات العاملة في تركيا بثورتها الصافية ، الخالصة من كل ضرورة قاهرة تفرضها عليها طبيعة التحارب في النظام الذي لا يزال صاحب الصبغة الظاهرة في اغلب المجتمع — انها عندذاك تعامل لغتها بغير ما تعامل به اليوم من الاغراق في جزّها . انها عندئذ تسير السير المعقول ، المتئد المفيد الذي حتّم على ثورات الطبقات العاملة ان تمشي على صراطه بطبيعتها الانتاجية ، المناقضة لكل تخريب وغلو في اهواء المصلحية الفردية

هنا نصل الى قمة المقارنة التي قصدناها ، لان هذا الصراط المستقيم عينه هو الذي سبقت الطبقات العاملة الروسية شقيقتها التركية الى السير عليه ، هو الدرب والخط الذي ابانه زعيمها ولسان

حالها ، لنين ، بوضوح ودقة ، في تعاليمه . ذلك ان فريقاً من الناشئة اغرق أيام الثورة الاولى في محاولة تجديد اللغة كما كان اغرق زملاؤهم الآخرون في مسألة علاقات الجنسين . لقد كان هؤلاء الشباب لايزالون تحت تأثير شيات تلاشى من عقلية التطوح البورجوازي ، تلك النزعة العقلية التي تنزع الى المغامرة والمغالاة في كل شيء من دون تدقيق الحساب تدقيقاً جامداً سلبياً لغير المصالح الفردية والطبقية الضيقة التي تملك قيادتها . لذا كانت هذه الناشئة يومئذاك تتحمس في تمردها على القديم حتى حدود نكران كل شيء فيه ، حتى الحد المضر غير المعقول في نكران لغتها ، في الاستسلام الى النقمة العمياء على طائفة كبيرة من الفاظها واساليب تعبيرها وامثالها وقواعدها ، وبالايجاز : من كل هذه الذخيرة اللغوية العريقة ، التي يخلقها تطور عصور طويلة دعمته اجيالاً متراكمة من الاختبارات والتحسينات وتكوّن النفسية والعقلية الشعبية ، التي خلقتها وهذبتها جمعية انسانية بأسرها والتي صفّاها تاريخ كامل لشعب كامل في غرباله العظيم

***

فلما رأى لنين هذه الميول الفوضوية ، المؤذية والسابقة لوقتها ، راح يخصص وقتاً ، وهو غارق مع رفاقه في بحر مستصعب من مهامّ الدولة الجديدة ومشكلاتها لدرس المسألة ودحض حجج ذلك التهور الذي وقع فيه الشباب الثائرون . وانني كثيراً ما اتذكر قول هذا الرجل في كتابه « الدولة والثورة » :

« لكن الحياة ترينا في كل خطوة من خطواتها ، في حيّز الطبيعة وحيّز المجتمع معاً ، أن آثاراً من الماضي تبقى في الحاضر . لذلك لم يكن ماركس متحكماً لما أدخل شيئاً من « الحقوق البورجوازية » في الشيوعية . بل انه لم يفعل سوى تقرير ما كان عتم الوقوع اقتصاديّاً وسياسيّاً في مجتمع يخرج من رحم الرأسمالية »

***

وهكذا نجد الاغراق منحصراً في الثورات التي تحركها دوافع المطامع الفردية ، مطامع طبقات الأقليات . ومن هذه النتائج العديدة واحدة يجدر عدم المرور بها مرّ الكرام . ان هذه الثورات هي التي خلقت في الدرجة الاولى تلك الفكرة المبتذلة الشوهاء ، التي لا ترى في الثورة إلاّ انهار دماء ، التي تحب ان لا تخلو من الدماء . ذلك لان جميع الثورات الناجحات والسابقات لثورة الطبقات العاملة غالَيْنَ في التقتيل والتدمير

لقد كانت البورجوازية الفرنسية في ثورتها الكبرى كثيراً ما لا تدري لماذا تقتل وكثيراً ما كان منظر المقصلة تحز الاعناق يلذها ويشعرها بالطمأنينة ، ولم تقف عن استعمالها الآ لما رأت بأنها اخذت تتقاذف رؤوس بعضها البعض